الفصل الثالث

بواكير التاريخ العربى

يكشف الحديث المشهور « الإسلام يجُب ما قبله » عن السبب الرئيسى لما يغلب على علاج المؤرخين العرب للعصر الجاهلى من غموض وشك . وتروى القصص عن الداخلين فى الإسلام الذين سألهم عمر أن يرووا بعض التجارب الجاهلية أو ينشدوا بعض الاشعار الجاهلية ، فكان جوابهم « لقد جب الله ذلك بالإسلام ، فلم الرجوع ؟ » وقد وجدت هذه الفكرة التى تذهب إلى ابتداء حقبة جديدة ، وأن كل ما سبقها يجب أن يطويه النسيان ، فى أوقات أُخرى ، فى الثورة الفرنسية مثلا . ويبدو أن هذه الفكرة سيطرت عليهم فى الإسلام . وكان ذلك سبب عدم معرفة المؤرخين العرب معرفة عملية بالتاريخ المهم الذى تكشف عنه النقوش ، والذى احتفظ به قدماء الرومان الإغريقيين . وكانت هزيمة حملة اليوس جلّوس Aelius Gallaus التى دبرها أُغسطس عملا فى عظمة هزيمة حملة نابليون على روسيا . وقد عزت السلطات الفرنسية فشلها فى الحالة الأخيرة إلى المناخ : أما الشجاعة الروسية فلا دخل لها فيه . ولكننا نمتلك وصفا روسيا للمسألة ، يروى قصة مخالفة . أما فى حالة الغزو الرومانى فليس لدينا إلا الوصف الرومانى ، الذى يزعم أن العرب لم يبدوا أثرا للمقاومة : وإنما أهلك الغزاةَ المناخُ والاحوال الطبيعية لبلاد العرب . ولو كنا عثرنا على وصف عربى ، لكنا وجدنا قصة مخالفة . وعلى أية كان لابد أن نتوقع أن يحتفظ العرب فى ذاكرتهم بنصر بهذه الشهرة : ولكن الامر ليس كذلك . وأخبار الحوادث التى وقعت قبيل عصر النبى غامضة ومشوهة : وإذا كانت النقوش التى عثر عليها جلازر فى مأرب، من عهد

الحكم الحبشى ، تسجل إصلاحا للسدّ الذى كان إذ ذاك متهدما ، فمن الواضح أن الأهمية التى أسبغها كتاب العرب على انهيار ذلك السد مغرقة فى المبالغة . ومن المحتمل أن يؤدى تدهور مملكة إلى انهيار خزان ، ولكن ليس من السهل أن يسبب الأمر الأخير الامرَ الاول ، كما يقول مؤلف . ومن الواضح أن الخرافات التى تدعى وجود مستعمرات يهودية فى يثرب وليدة الخيال : ولا يستطيع أن يقطع أحد ما إذا كانوا عربا تهودوا – وهو ما لعله يتفق مع الآيات القرآنية – أو يهودا تعرّبوا. وقد تناولت عدة رسائل تاريخ مكة ، وتاريخ المدينة ، ولكننا نحب أن نشير إلى أنه لا يعرف شيء عنهما قبل عصر النبى . أما كتاب الازرقى ، وإن كان قديما، فمجموعة من الخرافات .

ويوجد إلى جانب الحديث القائل بأن الإسلام يجب ما قبله مبدأ آخر عارض الاحتفاظ بالسجلات : ذلك هو النظرية الذاهبة إلى عدم تدوين أى كتاب سوى القرآن . وقد جمع كاتب أندلسى هو ابن عبد البر ، الاحاديث الواردة فى هذا الموضوع : ومعظمها ، الذى قدمه أولا ، يمنع التدوين . وينبغى ألا يوجد غير كتاب الله : وفى أحسن الاحوال أن يدون إنسان شيئا ليساعد ذاكراته ، فإذا ما حفظه عن ظهر قلب ، وجب عليه إحراقه . وقد أشير على الخليفة الثانى بتدوين « سنن النبى » : فاستخار الله شهرا كاملا ، ثم رفض . وقد رأى الخليفة الاموى القدير عبد الملك بعض أخبار مغازى النبى مدونة على صورة كتاب فى يد أحد أبنائه ، فأمر بإحراقها . وأمر الصبى بقراءة القرآن ومعرفة السنن : وأبى عليه أى لون آخر من الدراسة .

وروى ابن عبد البر بعض الاحاديث الاخرى التى تعارض الأحاديث السابقة : وتذهب إلى أن النبى نفسه أوصى بالتدوين . ولكن الرأى الغالب كان

فى جـانب المنـــع : وكان ذلك سبب تأخر نشأة التأليف النثرى* . ويذكر ابن عـبد البر سببين للمنع . أولهما قوة ذاكرة العرب ، التى جعلت تقييد المادة الادبية عـلى مـادة مـا أمرا غير ضرورى ، ما دامت ذاكرتهم من القوة بحيث تستطيع الاسـتغناء عن مثـل هذه المساعدة . وثانيهما الخوف من إنتاج منافس للقرآن . ونسـتطيع أن نحـذف السبب الاول منهما . فليس هناك ما يدعونا إلى ان ننسب لعرب الشمال والوسط ذاكرة أقوى من ذاكرة الجنوبيين ، وقد بقى أهل اليمن — كمـا رأينا — يدونون النقوش التاريخية قرونا . والمرجح أن السبب الثانى ، الخوف من منافسة القرآن ، هو السبب الحقيقى الكافى . وقـد اتخذوا ذلك مبدأ استعاروه من اليهود [1] ، الذين منعوا تدوين الكتب ، معتمدين فى ذلك على ما فهموه من إحدى فقرات سِفْر الجامعة ، ولم ينتجوا أدبا مكتوبا قرونا غير العهد القديم .

ويجب أن نضيف إلى هذين القولين اعتبارين آخرين . بازدياد أهمية الحديث ، ظهـرت طـبقة الحفـاظ ، الذين كانت صناعتهم البحث عن المعرفة الصحيحة بـالأحداث . وكـان من الممكن ان تسوء أحوال هذه الصناعة بصورة خطيرة ، لوشاع بين الناس أنه من المستطاع الحصول من مجموعة من الكتب على المعرفة التى يكد آخرون كل الكد فى سبيل الحصول عليها . ونحن على يقين أن شيوخ نيسابور أو أصفهان كانت لديهم المعلومات التاريخية التى لا يمكن الحصول عليها إلا منهم ، وكـان ذلـك قبل انتشار فكرة التدوين ؛ فإذا ما تيسر الحصول على جميع هذه

---

* انظر مختصر جامع بيان العلم (القاهرة ١٣٢٠ م) .

(١) أستبعد استعارة العرب ذلك المبـدأ من اليهود ، وإنما كرهوا التدوين خوف اختلاط المدون بالقرآن ، وشغله المسلمين عن دراسة القرآن وحفظه، وغير ذلك من الاسباب العربية البحتة — المترجم .

المعـــرفة مـــن الكـــتب ، كسدت بضاعة هؤلاء المعلمين . وعجيب ألا تؤثر تلك المدونات الكثيرة التى أخذت تتجمع بعد قيام الدولة العباسية فى صناعة الحفاظ . وبرغم ذلك ، كان أكثر مؤلفى الكتب من أهل هذه الصناعة أنفسهم ، وقد وصل الطرفان إلى اتفاق احتفظا به عدة قرون . هذا الاتفاق هو« الإجازة » ، التى تلزم ألا يأخذ القارئ الكتاب إلا عن مؤلفه شخصيا أو عن ثقة : وهكذا وفد الناس فى عصر الطبرى عليه لسماع التاريخ والتفسير منه شخصيا ، وإننا لنعرف أسماء رجال بقوا الرواة الثقات للتاريخ جيلين بعد وفاته . ولم يثقوا بالمعرفة التى تأتى عن طريق الكتب بدون رواية . ويروى خبر سيقابلنا أن المدائنى العلامة فقد شهرته لتصحيفه كلمة ؛ إذ استُنتج أنه عرف الخبر بالقراءة لا الرواية . وكانت شهرة الرجال تعتمد عـــلى ما تحتفظ به ذاكرتهم ، لا مايقيدونه بالتدوين . وقد تفوق على الطبرى نفسه رجـــلٌ أقـــل شهرة منه كثيرا، هو القاضى ابن البهلول ، إذ أخذ الاثنان ينشدان الاشـــعار ، فظهـــر أن ذاكـــرة الطبرى أضعف من ذاكرته كثيرا . وقد جمع رجل البلاط المؤرخ ، محمد بن يحيى الصولى ، مكتبة كبيرة ، كان يستطيع أن يخرج منها فـــورا المجلد الذى يحتوى على جواب أى سؤال يوجه إليه . ولكن عمله هذا جعله هدفا للاشعار الهاجية الساخرة ؛ إذ ينبغى أن يكون قادرا على الاجابة من الذاكرة بدون الرجوع إلى الكتب .

ثانيا ، ربما كان سبب عدم الثقة بالكتب المدونة الذى بقى زمنا طويلا كثرة الانتحـــال والوضع . وقد سجل المؤرخون عدة حالات منه : فقد كشف الشعبى الفقيه عن وضع الرسالة التى ادعى المختار بن أبى عبيد أن محمد ابن الحنفية أرسلها إليـــه لتزكيـــته أمام شيعته : وتقول رواية إنه أقام رأيه هذا على حداثة العهد بختم الرســـالة، وتقـــول أخرى إن محمدا يلقب فيها بلقب لم يطلقه على نفسه . وروى

مسكويه أن المهلبي الفاضل الكفء نفسه لم يكن يتنزه عن الوضع إذا ما خدم هدفه. ويروى المؤرخ نفسه خبرا مطولا عن وضع الوحى المنسوب إلى النبى دانيال، حتى استطاع أحد المرشحين للوزارة أن يفوز بمنصبه بواسطة ذلك الوحى الموضوع : وتروى تفاصيل العملية التى يمكنه القيام بها لإعطاء الكتابة الحديثة مظهر القدم حتى لا يتيسر كشفها . وقد حصل ابن البواب الخطاط على الشهرة بتقليده خط ابن مقلة تقليدا متقنا حتى إن أحدا لم يكن يستطيع أن يميز بينه وبين ما كتبه ذلك الخطاط العظيم . وتبين الشهرة التى اكتسبها الخطيب البغدادى لكشفه زيف اتفاق كان يظن أن النبى امر بكتابته ليضمن ليهود خيبر الحقوق، تبين أنه وجد خبراء قليلون بهذا النوع من النقد . وتروى قصة شائعة تمثل كرم الوزير ابن الفرات أن أحد الناس وضع عليه رسالة يوصى فيها أحد حكام الاقاليم به ، فنفذ طلبه ، ولكنه أرسل إلى الوزير يعبر عن شكه فى صحتها . فأعلن الوزير أن لا أساس لشكوكه ، واعترف بصحة الرسالة : ثم أدخل الرجل الواضع فى خدمته .

ونتبين من كثرة الروايات التى كان المؤرخون يذكرونها من الخطبة أو الرسالة الواحدة كثرة فائقة ، أنهم كانوا يفضلون الرواية الشفهية على المدونات ، فى تلك الحقبة التى ظهر فيها أعاظم المؤرخين . ومن أشهر خطب العرب تلك التىألقاها الحجاج المشهور بالطغيان عند دخوله الكوفة . ولدينا من هذه الخطبة أربع روايات متعاصرة تقريبا ، فى كتب الجاحظ ، والمبرد ، والطبرى ، والبلاذرى . أما المؤلفان الاولان فهمهمّا الجانب اللغوى من الخطبة ، وأما الاخيران فالجانب التاريخى . وتختلف الروايات الاربع ، مع اتفاقها فى أكثر مادة الخطبة ، اختلافا كبيرا فى ترتيب العبارات ، وفى كثير من الجمل ، وحين يقارن بعضها ببعض يظهر فى كل منها بعض الحذف والاضافة . وتوجد وثيقة غاية فى الاهمية باعتبارها أساسا

للقضـــاء، تتضمن تعاليم الخليفة الثانى إلى قاض عيّنه . ولدينا عدة نسخ من هذه الوثيقة الموجزة ، ولكن بينها جميعا خلافات كبيرة . ولونسخ رواة هذه الوثائق من نصوص قديمة لما عذرناهم لهذه التغييرات التى أجروها إما إهمالا وإما تحكما، ولكننا نعـــذر هذه الخلافات إذا كانت ترجع إلى الرواية الشفهية . ويخبرنا المؤلفون الذين يذكرون نسخا من رسائل ربما كانوا يمتلكون أصولها أنهم يروونها عن الذاكرة .

وإذن فالنظريات التى كانت تقف عقبة فى سبيل التدوين هى :

(١) الحديث بأن الإسلام يجب ما قبله .

(٢) المبدأ القائل بوجوب عدم وجود كتاب مدون غير القرآن.

(٣) أن صناعة الحفاظ جعلت الكتب المدونة غير ضرورية .

(٤) أن الوثائق المدونة كانت غير موثوق بها .

وقد تغيرت جميع هذه النظريات بمرور الوقت .

(١) فجعـــل تفســـير القرآن بعض المعرفة التاريخية أمرا لا يمكن الاستغناء عنه . فـــلقد كـــان القرآن كثيرا ما يعالج الاحداث الجارية، وخاصة فى الآيـــات المدنيـــة : ويوجـــد الآن فرع كامـــــل يسمى « مناسبات الآيات » يقوم عـــلى تحديـــد المناســـبات التى أوحيت الآيات فيها . والنصوص التى تعالج الاحـــداث الجارية عامة إلى درجة كبيرة ، وتتجنب ذكر الاعلام : فلم يكن يـــدرك معناها الحق إلا من أوحيت إليهم . وهكذا لا يصرح فى السورة التى تتناول تهمة باطلة وجهت إلى عائشة بكنه التهمة ، ولا من روّجها . وكانت المســـألة مشـــهورة إذ ذاك ، ولكـــن لا بد من معرفة التفاصيل كى تفهم الســـورة، بعد جيل . ووجد المفسرون فى السورة نفسها آيات تعالج أحداثا يفصل بين كل منها سنون : فمن الضرورى أن يكون لدى المرء بعض المعرفة بـــالأطوار الرئيسية فى حياة النبى ، ليقرأ القرآن ويفهمه . كذلك يوجد فى

السـ ـيرة لثالثة آيات يروى أنها تنتمى إلى الحقبة التى تلت بدرا مباشرة ، والتى تلت أحدا مباشرة ، وغزوة الخندق ، ووفد نجران الذى أتى إلى المدينة بعـد ذلك بزمن طويل ، فالمفسر الذى يريد أن يشرح قوة الآيـات مضطر إلى الحصول على بعض المعرفة التاريخية أو جلبها .

ولكن القرآن يحتوى أيضا على كثير من أخبار التاريخ القديم ، ويكثر فى هـذه الاحوال ذكر الاعلام ، ولكن القارئ يسره فى كل حالة أن تذكر معلومات إضافية . وعلى أية حال ، يسره أن يستطيع ترتيب الحوادث ترتيبا عـلى صـلة زمنية ما بعصره . ولكنهم على الاقل لم يشجعوا الرجوع إلى الكتب التى فى أيدى اليهود والمسيحيين ، إن لم يكونوا منعوه فعلا . وسنرى أن محمـد بن إسحاق ، مؤلف سيرة النبى ، جلب على نفسه اللوم لاشارته إلى هـذه الكـتب . وبـرغم ذلك كان الداخلون فى الإسلام من اليهود والمسـيحيين على أية حال ميالين إلى الانتفاع بما علق بذاكرتهم فى إشاراتهم إلى الاحداث المذكورة فى القرآن ، وفعلوا ذلك بصورة بارزة . وإننا لنعرف أسماء الاشخاص الذين قاموا بذلك فى زمن مبكر .

(٢) وكـان ترتيب المسلمين طبقات الرجال بحسب الاسبقية فى الإسلام أحد الاسـباب التى جعلتهم يرتبون أخبارهم فى التاريخ الإسلامى ترتيبا زمنيا . وكـان الوقت الذى قضاه كل فرد مسلما ، هو أساس تصنيف المسلمين فى تقديـر العطـاء المفـروض لكل منهم فى ديوان العطاء . ويوجد كثير من الاشـارات إلى هذه « السابقـة » . وفى التحكيم المشهور خاف المدافع عـن معاويـة أن يعترض على توليته لأنه لا « سابقة » له ، إذ لم يدخل فى الإسلام إلا عندما فتحت مكة . ولكن قين من ناحية أخرى إنه صهر النبى ، ولا شك أن ذلك أرضى الرأى العام عنه . وقد حفظ ابن إسحاق قوائم بمن

غزوا المغازى مع النبى ، ولا شك أن ذلك لاهميتها فى ذلك الغرض . وبرغم ذلـــك نجد فى أخبار ابن إسحاق نفسه بعض الشكوك فى ترتيب الحوادث ، ونجـــد شيئا من عدم الاطمئنان إلى الأمر نفسه ، فى كتب الإمام الشافعى ، الـــذى كان من المشغوفين بالبحث ، وعاش طويلا فى المدينة، مع أهمية ذلك فى إثبات الترتيب الزمنى لآيات القرآن .

(٣) أعطيـــت المدن والاقطار المفتوحة حقوقا مختلفة وفقا لما بذلته من مقاومة فى وجـــه الفـــاتحين . وأحيانا أدى قيام الثورات بعد الخضوع إلى تغيير هذه الشـــروط ، كما فى حالة مصر . ومن الواضح أن المحافظة على مثل هذه الحقوق يتعذر ، إن لم يستحل ، بدون التأريخ المستمر للحوادث . ويبدو أن الامـــور كانت ميسرة فى العصر الأموى قبل أن تحفظ نسخ أمثال هذه المعـــاهدات فى العواصـــم ، أو فيما يشبه دار المحفوظات . فكانت المناسبة حينئذ عرضية . وكان من المستطاع حين يقتبس من المعاهدات ، الاقتباس مـــنها شفويا ، وكان ذلك سبب وجود عدة أخبار مختلفة كل الاختلاف تســـجل مثلا المعاهدة المهمة التى اتفق فيها على ومعاويـــة على التحكيم : إذ إن الشـــهود مختلفون . ومن الشاق الحكم على صحة المعاهـــــــدات أو الصكوك المذكورة ، بدون المعرفة التاريخية .

وأمثلة هذه الحاجة فى فتوح البلدان للبلاذى . وهكذا عندما وجدوا أنفســـهم يواجهـــون مسألة كيف يعاملون أهل قبرص بعد ثورتهم حينما استشـــار الوالى الذى أخضعهم عددا كبيرا من الفقهاء ، كان من الواضح أن هـــؤلاء الفقهـــاء اضـــطروا إلى فحص المدونات ليعرفوا كيف فتحت قـــبرص، وعـــلى أية شروط ، وكيف عولجت أمثال هذه الحالة من قبل . وكـــانت السوابق التى احتاج إليها الفقهاء لا يستطاع الحصول عليها إلا

من كتب السجلات أو من الاشخاص المشتغلين بحفظها فى ذاكرتهم . وكانت المدينة مركز هذه المعرفة ، حيث أخذ الخبراء يظهرون فيها بعد وفاة النبى بوقت قصير ، حين ازدادت الحاجة إلى مثل هذه المعرفة ازديادا سريعا . وكان القرآن دقيقا فى وصف أهل المنطقة التى أنزل فيها بالأمية ، حتى إن اللغة العربية لم تستعمل فى الدواوين إلا فى منتصف العصر الأموى، فى عهد عبد الملك بن مروان : فكان « الموظفون الدائمون » حتى ذلك الوقت من أهل الاقطار المفتوحة بالضرورة، فواصلوا العمل باللغة والاساليب التى كانوا يألفونها . ويستطيع المرء أن يتخيل أن اتخاذ العربية الحجازية لغة رسمية فى دواوين الامبراطورية لا بد بالضرورة أنه سابق على اتخاذه فى تأليف الاخبار . ويدل الخبر المذكور فوق ، إن كان حقا ، على أن عبد الملك نفسه لم يرغب فى أن يتجه عمله الجديد إلى هذا الاتجاه: وبرغم ذلك يجب أن ننسب إليه التطورات التى تولدت طبيعيا منه. فقد أظهر طبقة الكتاب ، الذين اتسع نطاق معلوماتهم إذ ذاك وأصبح موسوعيا ، على حين كان العامل المهم فى إنماء أسلوب نثرى . ولا شك أنه كان مضطرا إلى الاعتماد على أبحاث النحاة واللغويين ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين على مسايرته . ولدينا قصة من القرن الرابع لعلها صحيحة، تصور هذه الحالة . فقد كان أبو سعيد السيرافى النحوى ، الذى طبقت شهرته اللغوية الآفاق إذ ذاك ، فى حفلة طلب السلطان فى أثنائها أن تكتب عنه رسالة رسمية . فسئل أبو سعيد أن يكتبها ، فعجز ، على حين أنجزها احد الكتاب فى سرعة . ويروى المعجبون بعلى بن عيسى الوزير كيف كان قادرا على كتابه الرسائل التى ترسل إلى الولاة مباشرة :

ولم يكن محتاجا إلى أن يعمل لها مسودة ، إذ لم يكن يغير منها شيئا . وقد صار الكاتب فيما بعد المؤرخ ، لا لأنه ذو معرفة وثيقة بالامور ، وإنما لأنه كاتب درب .

وكان ذلك النتيجة البعيدة لعمل عبد الملك ؛ وهناك أسباب لبقاء المراكز العليا فى الدواوين مشغولة فى كثير من الاحيان بغير المسلمين ، وغير العرب ، ، بالرغم من اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، وكان الكتاب العرب نادرين ، إن كانوا وجدوا إطلاقا [1] ، وليس علينا إلا أن نتذكر الطبرى ، والدينورى ، ومسكويه ، وإبراهيم الصابى ، وعماد الدين الاصبهانى ، ومن إليهم . وبالرغم من ذلك لم يزعزع ظهور هذه الصناعة مركز الحفاظ، هؤلاء الذين احتفظوا بالاشياء فى ذاكرتهم ، والتى كانوا يحتاجون إلى خدماتهم فى ذكر السوابق التى يقاس عليها فى التشريع والقضاء بصفة مستمرة . لأن لفظ « السنة » ، الذى معناه اللغوى العادة، صار معناه السابقة التى عملها النبى ، اتسع نطاق النظرية القانونية الذاهبة إلى أن العمل الذى قام به شخص مؤهّل ربما يتكرر القيام به ، فتجاوز مجال أعمال النبى .

وأصبح الرجال الحاصلون على ذخيرة من المعلومات يحتمل أن تثير انتباه المستمعين ، قُصّاصا ، اتخذوا حلقات فى المساجد ، ورووا القصص. وكان الناس أميل إلى القصص التى تدور حول الاشخاص البارزين فى تاريخ الإسلام، أو الانبياء المذكورين فى القرآن ، وربما يرجع

---

(١) ذلك رأى خاطىء ، فالكتّاب العرب موجودون منذ الجاهلية، وكثروا فى صدر الإسلام كثرة واضحة ، وارجع إلى كتاب نشأة الكتابة الفنية عند العرب للمترجم – المترجم .

إلى هـــذه القصص معظم ما تجمع حول هؤلاء الاشخاص . وغالبا ما يتهم القصـــاص الاولـــون . الذين أخذ المؤرخون المتأخرون معلوماتهم منهم ، بالاخـــتراع أو الكـــذب ، لأمر أو آخر . فيقـــال إن عوانـــــة ، الذى يـــروى الكـــثير ، كذب لإرضاء الامويين : ويبدو أن رواياته الموجودة فى الكـــتاب المنســـوب إلى البلاذرى تؤيد هذه التهمة . إذ تصور عبد الملك الأموى كريما متسامحا ، على استعداد لمهادنة ابن الزبير بأية شروط، إذا ما تـــنازل عن طلب الخلافة. أما جميع الاعمال الوحشية والمنافية للدين التى وقعـــت فى أثناء إخضاع ثورة ابن الزبير فالحجاج هو المسئول عنها : وفى الاوقـــات الـــتى كـــان عبد الملك يستطيع أن يكبح جماحه ، فعل ذلك . وحيثما استطاع أن يصلح ما أفسده الحجاج ، فعل . وكان كريما أيضا فى احترام أعدائه الذين تغلب عليهم ، ولم يستحسن أن تســـــاء معاملتهم أو مخاطبتهم . ومن العسير الحكم على الاحتمالات فى أمثال هذه المسائل . وبرغم ذلك من الواضح أن اشتهار جميع هؤلاء الجامعين الاولين للمعارف بالصـــدق أمر مشكوك فيه . فإذا كان المؤرخون المتأخرون اعتمدوا على أقوالهم ، إنما كان ذلك لانهم لم يجدوا مصادر أخرى .

(٤) أدى الغـــنى فى صدر الإسلام إلى ظهور طبقة لا عمل لها ، والميل إلى القديم هـــو هواية مثل هذه الطبقة فى كل مكان . وإذ نمت المدن الإسلامية وجد كـــثيرون شـــغوفون بمعرفة كيف أسست و كيف بنيت بناياتها الرئيسية : ووجـــدت أيضا مشاكل ناتجة عن التنظيم القبلى فى صدر الإســـــلام ، الذى بحسبه أعطيت للقبائل المختلفة أحياء متباعدة فى المدن التى أسست.

وجـــد علم التاريخ لهذه الأسباب جميعا بالرغم من عدم تشجيع الحكومة ، وجعلت مطالب النظام التشريعى منه أمرا ضروريا . واتخاذ أحكام النبى « سنة » بـــدلا من أعمال الجاهلية جعل تدوين هذه الأعمال أمرا لا يمكن الاستغناء عنه ، واســـتلزم ذلـــك معرفة بعض الأشياء عن الاشخاص المذكورين فى الأخبـــــار ، والـــرواة خاصة . أضف إلى ذلك أن الإسلام كان مستمرا : فلم يكن لوفاة النبى النـــتائج التى تعقب غالبا وفاة مؤسس أحد الانظمة : وشغل محله كرئيس للمجتمع فى الحـــال رجال وضع فيهم ثقته عدة سنين وكانوا على معرفة تامة بآرائه . فأطلق لفظ « الآثار » حقبة لا على أعمال النبى وحده ، بل على أعمال خلفائه الاولين أيضـــا . وفى موطأ مالك ، وهو أول مجموعة من الاحاديث لدينا ، بعض التساهل بهذا الصدد .

وتتمثل بعض الخصائص الناتجة من منهج التأليف فى المجلد الموجود من تاريخ الـــبلاذرى ، ولعـــلها كانت ظاهرة فى المجموعات القديمة التى يذكرها . وإحدى السمات التى تشترك فيها مع كتب الحديث هى « التكرار » : فترد القصة نفسها أكـــثر مـــن مرة على الصفحة الواحدة أو فى أجزاء متفرقة من الكتاب بدون أى اخـــتلاف أو مـــع خلاف طفيف ؛ والسبب أن المؤلف أخذها عن أكثر من شيخ واحـــد . وفى مجموعات الحديث سبب لذلك ؛ إذ تعد ألفاظ النبى كالوحى ، فمن الاهميـــة بمكـــان كـــبير تـــأكيد الصورة الصحيحة التى قيلت عليها إن أمكن ؛ فالـــروايات المختلفة تشبه الطاقات المستقلة تتجمع جميعا لتقوية الحبل . أضف إلى ذلك أن الاحاديث أساس التشريع ؛ فهى تصور المثال الذى قرر النبى ما عرض له من حالات على هداه ؛ وهى تورد أحكاما مهمة على مسائل من العقيدة . ولذلك مـــن الطـــبيعى والملائـــم أن يتكرر ذكر الحديث الواحد فى مجموعة مثل مجموعة الـــبخارى تحـــت عناوين أو مواد مختلفة من الفقه . ولكن لا ينطبق أى سبب من

هذين على أقوال الخلفاء الامويين مثلا وأعمالهم ، أو الاشخاص الذين لا يعتدّ بهم. والخطـــة الاقـــل إسآما ، والتى اتبعها بعض المؤرخين بعد، هى ذكر الرواة فى صدر الخـــبر، وإذا لـــزم الامر ، يشار إلى وجود بعض الخلافات الصغيرة بينهم ، على الرغم من اتفاقهم على السياق الرئيسى .

أضف إلى ذلك أننا نجد نتيجة عجز الذاكرة الذى يؤثر فى الاخبار فى معظم الاقطـــار . وجديـــر بالملاحظة الاقوال التى تنسب إلى غير قائليها ، بسبب تشابه الاسمـــاء أحيانا ، وبسبب الخلط بين الاشخاص الذين تربط بينهم رابطة ما أحيانا أُخرى . فقد كان معاوية وعبد الملك أبرز خلفاء بنى أمية ، وكانت وجوه الشبه فى أخلاقهمـــا غير قليلة ، ولذلك ينسب الخبر الواحد لكليهما . وعانت الاعداد ، ذات الاهميـــة الكبيرة فى المدونات التاريخية ، كثيرا وبشكل خطير من السهولة التى تســـتبدل بهـــا الذاكـــرة الواحد بالآخر . فيقول البلاذرى فى ذكره عدد الملتفين حـــول الحجاج حين واجه ثورة ابن جرود ، إن بعضهم يقول ٦٠٠٠ ، وآخرون يقولون ١٦٠٠ !

ومـــن الشـــاق أن نحدد مدى الكذب الاختيارى والمتعمد الذى تسرب إلى الاحـــاديث فى تلك الحقبة ، وليس أمام الحكم الشخصى ما يهتدى به . فهذا هو مـــؤرخ بغدادى ، هو ابن أبى طاهر ، يورد خطبة فاطمة بنت النبى ، تعترض على حـــرمان أبى بكر إياها ميراثها . ويقول إن صحتها موضع نزاع : ولكن هذا النقد يـــرجع فى رأيه إلى الهوى ، الرغبة فى الحط من شأن آل بيت النبى . وقد نقول من ناحيـــة أخـــرى إن مـــثل هذا الموضوع أتاح فرصة طيبة لتمرين القدرة الخطابية . ويظهر من نقد الحديث الذى تطور إلى علم منتظم فى زمن مبكر ، ونضج فى القرن الثالث ، حين وضعت المجموعات المعتمدة ، أن الاحاديث كانت توضع على نطاق واســـع . واختـــلفت أحوال جامعى الحديث فى الشدة : أما ما اتفقوا عليه فوجود

مقاديـــر كبيرة من الاحاديث موضوعة . وقد أدى الشغف بزيادة المعرفة عن النبى وأبطـــال صدر الإسلام ، كما نعرف ، إلى كثرة العمل والجهد بين المسلمين عنهما فى أيـــة حالة مشابهة : ودراسة أحاديث النبى هى المسئول الاول عن تقدم الجغرافية والتراجم وسببه ؛ وإذ كانت طريقة اختبار صحة أحد الاحاديث هى تقدير جدارة راوته بالثقة ، كان مما لا يستغنى عنه معرفة أكبر قدر ممكن عن حياتهم : وكان من الضـــرورى معرفة متى وأين ولدوا ؟ وجعل ذلك الجغرافية والتاريخ أمرا ضروريا. وقوّى ذلك المبدأ الذاهب إلى أن أقوال النبى وأعماله مصدر التشريع : ويبدو أن دوافـــع الوضـــع والكـــذب فى هذه الاحاديث وفيما قد نسميه التاريخ الدنيوى متكافئة. قد نصدق أن المسلمين كانوا لا يجرءون على وضع شيء ما متصل بالنبى، إذ يقـــول حديث مشهور إن ذلك العمل على درجة كبيرة من الإثم . أما الكذب على يزيد بن معاوية أو عبد الملك فأقل جرما كثيرا . ومن جانب آخر كانت قيمة أقوال النبى وأعماله غاية فى العظمة ، ولذلك وُجد الدافع إلى وضعها فى هذه الحالة ولم يكن دائما دافعا لا يستحق الثقة ، ولا ينفرد الحديث به . ويحتاج التمييز بين ما حدث فعلا وما لا بد أنه حدث الوصول إلى حالة اتزان فكرى لم يبلغها حتى أيامنا إلا قليـــلون . وكـــان هؤلاء الذين شكّلوا أخبار تلك الحوادث التى كان لها أعظم النتائج فى التاريخ الإسلامى ، بعض التشكيل أميل إلى أن يوضعوا فى مركز جعلهم يـــتخذون رايـــا خاصا فيما قد حدث :وجعِلت الاخبار بحيث توافق ذلك الرأى . ونســـتطيع أن نـــرى آثار ذلك حتى فى التاريخ المتأخر . ونمثل لذلك بأخبار مقتل المقـــتدر الـــتى رواها كل من مسكوية وعريب . إذ يقول مسكويه إن المقتدر كان جـــبانا لا أمـــل له : وبالرغم من دعوته مرارا للظهور امام قواته فى الميدان ، كان يقـــدم الاعتذار تلو الاعتذار ، إلى أن أرغم على ذلك : أما عريب فيقول إنه تقدم

بشـــجاعة . ويـــتفق الاثنان على أنه لقى حتفه فى تلك المناسبة . وربما كان عريب يفكر كيف يجب أن يتصرف الخليفة ، على حين يتبع مسكويه رواية صحيحة .

وبـــرغم ذلـــك ، تتبعنا الآن العملية التى صارت الروايات بواسطتها أخبرا تاريخيـــة . فقد استدعى كثيرون شهود العيان للحوادث المهمة ليصفوها : وجعلهم الاصـــطلاح يـــتخذون بعد مدة أسلوبا ثابتا فى تعبيرهم ، صار حديثا. ونجد هذه العمـــلية على الاقل فى القرن الرابع : فالرجل الذى يريد الحصول على معلومات قـــيمة وعلى استعداد لجلبها يتخذ صورة خاصة : ويرويها المستمعون المختلفون ، مع خلافات غير مهمة عادة ، ومع خلافات مهمة أحيانا . وأدخلت هذه الاحاديث فى المجموعـــات المســـتمرة مع استمرار احتفاظها بذاتيتها : ولما ظهرت الحاجة إلى الاختصار أسقط « الاسناد » وصارت تاريخا . ويجعل المؤرخون العرب ، كما قد رأيـــنا ، تتبع مصادرهم أيسر مما عند مؤرخى الامم الاخرى إذ أن تاريخهم تطور مـــن الاحاديث : ولم يبدأ بالتاريخ المستمر أو الرسمى ، وإنما بأخبار شهود العيان . وامتلاك المسلمين لهذا النظام جعل المسلمين يمتازون ميزة واضحة فى خصوماتهم مع اليهـــود والمســـيحيين ، الذين يظهرون بمظهر الاكثر تسليما بمعلوماتهم . فليست لديهـــم سلاســـل رواة لتاريخهم الدينى أو الدنيوى : حيث ، لا يصف المؤرخون الإغريق مثلا تجاربهم الخاصة ، وقلما يتيحون لنا الفرصة لاختيار مصدر المعلومات الـــتى يقدمونها : وعلينا أن ندعى أنهم حصلوا عليها من أُناس كانوا عارفين بها . وأخيرا اضطر اليهود إلى تأليف « إسناد » لتوراتهم .